فصل من الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي

(الخبر عن التونسيين بالآستانة)

بقلم : علي الشنوفـي

1) تقديم :

إنّ دراسة التاريخ التونسي في القرن التاسع عشر ما زالت في رأينا منطوية على كوامن هي في حاجة إلى الاستجلاء رغم ما أنجز من دراسات قيّمة . فما عدا ما هو مطبوع من مراجع البحث ، بقي مرجعان هامّان : أوّلهما **الوثائق** المحفوظة بخزينة الدولة التونسيّة وينبغي تكميلها بالوثائق القابعة في خزينات الدول التي كان لتونس اتّصال بها . ثم **المخطوطات** التي جمعت في دار الكتب الوطنيّة بتونس .

أمّا في خصوص المخطوطات فلنا ثلاثة مراجع :

أولا : كتب التاريخ وأهمّها الإتحاف وقد طبع أخيرًا .

ثانيا : الرحلات وأهمّها في ما نعلم الرحلة الحجازيّة للشيخ محمد السنوسي .

ثالثا : الكنانيش المبعثرة والتي أكثرها أهمل فيه ذكر اسم المؤلّف . وإذ نحن نقدّم اليوم فصلا مقتطفا من الرحلة الحجازيّة يتعلّق بإقامة التونسيّين بالآستانة نحاول أوّلا التعريف بالشيخ محمّد السنوسي وبمضمون رحلته لإبراز أهميّة الفصل المقتبس .

1 ــ ترجمة محمد السنوسي (*) :

ولد محمّد بن عثمان بن محمد السنوسي بتونس في 22 ذي القعدة سنة 1267/ 18 سبتمبر 1851 . ونشأ في بيت علم . تولّى جدّه وأبوه القضاء المالكي. والتحق بجامع الزيتونة فصار من أنجب خرّيجيه وبه جلس للتدريس بعد أن أحرز شهادة التطويع سنة 1287/1870 . وذاع صيته فعيّنه المشير الصادق باي معلّماً للأمير محمّد الناصر باي. وفي 30 محرّم 1291/19 مارس 1874 انتخبه أستاذه محمد بيرم V كاتبا أوّل لمجلس جمعيّة الأوقاف. وفي 5 شعبان 1293/26 أوت 1876 عيّن محرّرا لجريدة الرائد التونسي . وتواصل نشاطه بالمؤسّستين إلى أن انفصل عنهما في 5 رجب 1298/3 جوان 1881 لما يئس من الوزير مصطفى بن إسماعيل إذ لم يجد في مناصرته عونا على الإصلاح. وانتصبت الحماية الفرنسيّة بتونس فتاقت نفسه إلى هجرة البلاد فما كان من الدولة أوّلا الا منعه وتعلّل بأداء فريضة الحجّ فأذن له بالسفر وغادر تونس في 7 رجب 1299/25 ماي 1882 وآب إليها من رحلته الحجازية في 26 ربيع الأول 1300/4 فيفري 1883 . وإذاك التحق بوظيفه الذي كان تخلّى عنه بجمعية الأوقاف وعيّن مدرّساً بجامع حمّودة باشا المرادي . وفي 18 جمادى الثانية 1302/4 أفريل 1885 تزعّم المظاهرة الاحتجاجية الكبرى ضدّ النظام البلدي ووصلها بحركة جمعيّة العروة الوثقى . وفي 6 شعبان 1302/21 ماي 1885 ألقت السلطات الفرنسية القبض عليه وعزلته عن وظيفه ونفته مدّة ثلاثة أشهر إلى قابس دخل إثرها في مناصب قضائية بالمحكمة المختلطة ثم بالعدلية التونسية .

(*) انظر : الفاضل ابن عاشور : أركان النهضة الأدبية بتونس . 1965 ص 28–32 .
انظر : محمد النيفر : عنوان الأريب . ج II ص 145–153 . ط. تونس 1932 .
انظر : محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية. ج I ص 416–417 ط. القاهرة 1931 .
انظر : Revue Tunisienne : T, VIII. 1901, pp. 103-4 ; T, IX. 1902, pp. 432-437
انظر : المنصف الشنوفي : مصادر عن رحلتي الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى تونس . حوليات الجامعة التونسية العدد الثالث سنة 1966 . ص 78 .
انظر : محمد بن عثمان الحشائشي : جلاء الكرب عن طرابلس الغرب . ص 143 . بيروت 1965.

وفي 8 ذي القعدة سنة 1889/1306 رحل إلى باريس لمشاهدة المعرض العام بها وعاد الى تونس في 6 ذي الحجّة 1306/غرّة أوت 1889 . ثم بقي على نشاطه الفكري والقلمي إلى وفاته ليلة السبت 24 رجب سنة 1318/17 نوفمبر سنة 1900 .

2 — آثارهُ :

ترك محمّد السنوسي آثاراً أدبيّة قيّمة منها ما طبع ومنها ما زال مخطوطا .

آثاره المطبوعة :

1) جزءان من مجمع الدواوين التونسيّة (1) . المطبعة الرسميّة . 1878/1296 .

2) كتاب غرر الفرائد بمحاسن الرائد (2) . المطبعة الرسميّة . 1878/1296.

3) كتاب المقاولات العشر .

4) كتاب مسامرات الظريف بحسن التعريف في تاريخ فقهاء الدولة الحسينيّة بتونس المحميّة (3) . المطبعة الرسميّة . 1891/1309 ، 304 ص .

5) مطلع الدراري بتوجيه النظر الشرعي على القانون العقاري . تونس 1305/ 1887 ، 1888 : 272 ص .

6) الاستطلاعات الباريسيّة (4) . المطبعة الرسمية . 1891/1309 ، 279 ص .

7) كتاب درّة العروض (5) . المطبعة الرسميّة . 1880/1297 .

(1) اشتمل مجمع الدواوين على عشرين جزءا جمع فيها إنتاج الشعراء التونسيين . أنهى تأليفه في خمس سنوات من 1870/1287 إلى 1875/1292 . والجزءان المطبوعان يتعلقان بأستاذه الشاعر محمود قابادو . الجزء الأول به 171 ص . والجزء الثاني به 210 ص. منها 50 ص. تقاريظ . دار الكتب الوطنية بتونس : رقم 998 .

(2) لم نعثر له على أثر بدار الكتب الوطنية وغاية ما نعلمه عنه ما ذكره محمد السنوسي في الرحلة الحجازية (ج II)عند حديثه عن فصله الإفتتاحي لجريدة الرائدالتونسي بعنوان «لا قول إلا بعمل» أو ما ذكره إسحاق قطان (I. Catton) في : Revue Tunisienne IX, 1902. p. 433

(3) يشتمل على مقدمة بها خلاصة تاريخ تونس إلى عهد المشير الصادق باي وخمسة أبواب في تراجم .

(4) استغرقت قرابة الشهر غادر تونس يوم الخميس 6 ذي القعدة 1306/4 جويلية 1889 وعاد إليها يوم الخميس 4 ذي الحجة/غرة أوت الموالي .

(5) درة العروض منظومة في علم العروض في 13 ص. توجد بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 33110 بعنوان تأليف آخر للمؤلف عنوانه الأجنة الدانية الاقتطاف بمفاخر سلسلة السادات الأشراف في 15 ص. المطبعة التونسية 1879/1296 .

8) الروض الزاهر في إسناد الحبس للاسلام الباهر. حرّره سنة 1303/1886 ـ 1885 . ونشره محسن زكرياء . المطبعة التونسية . 1348/1930 .

9) المورد الأمين في ذكر الأربعين (6) .

آثاره المخطوطة :

1) مجمع الدواوين التونسيّة (7) .
2) خلاصة النازلة التونسيّة (8) .
3) نبذة تاريخيّة في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل (9) .
4) ديوان شعر (10) .
5) كنانيش بها قصائد ومقامات (11) .
6) الرحلة الحجازية (12) .

3 ـ محتوى الرحلة الحجازية :

لئن اتّبع محمّد السنوسي في تحرير رحلته الإطار الإعتيادي لمثل هذه الرحلات (13) فإنّه امتاز باقتضابه للنعصر الأساسي من ذكر خبر الحجّ ومناسكه

---

(6) ونشر محمد السنوسي عدة رسائل أخرى نذكر منها رسالة تفتح الأكمام ورسالة نشر البساط في نازلة الفسقاط ورسالة نفحات الاخيار بمولد النبي المختار ورسالة نظام المدنية المفيد لكتاب العصر الجديد .

(7) يوجد بدار الكتب الوطنية ، قسم المخطوطات ، ثلاثة أجزاء من هذا المجمع : ج : 1 و 2 تحت رقم 16628 ؛ ج : 3 تحت رقم 16633 .

(8) دار الكتب الوطنية . رقم 16635 . يقع في 50 صفحة (ح 25–16) وفي أوله قصيدة في المخترعات الجديدة (من ص : 1 إلى ص : 11) .

(9) دار الكتب الوطنية . رقم 03749 . يقع في 31 ورقة (ح 22–16) انظر تعليقنا رقم 39 من النص المقتبس .

(10) دار الكتب الوطنية . رقم 16629 يقع في 247 صفحة (ح 21 X 13) .

(11) دار الكتب الوطنية . الأرقام 16630 ـ 16631 ـ 16632 .

(12) دار الكتب الوطنية رقم 3346 ج 1 : 181 ص ، ج 2 : 279 ص ، ج 3 : 271 ص .

(13) انظر : Hadj Sadok M., Le genre « Rihla », B.E.A. n° 40, nov.-déc. 1948, pp. 195-206

فلم يخصّص لذلك إلا بضع صفحات من بين ثلاثة أجزاء مجموع صفحاتها 731 . فاستهلّ الجزء الأول بذكر الآيات والأحاديث الخاصّة بالحج وعقّب بحديث عن فوائد السفر ثم تحدّث عن مبدإ سفره وعن أقسام القارّة الأوربية وعن إيطاليا فأسهب في وصف معالم مدنها ولاسيّما نابلي وبومباي وصانبيترو وليفورنو، وفي الأثناء تحدّث عن الجمعية « الفريماسون » وأطنب في وصف ما لفت نظره على الخصوص من المعارض والمتاحف والمسارح وعادات الأهالي .

أمّا الجزء الثاني فيحتوي على ذكر السفر إلى آسيا ويبتدىء بوصف بلاد الترك وعاصمتها الآستانة فيسهب في وصف جوامعها ومتاحفها ويخصّص فصلا للسلطان عبد الحميد ثم آخر للتونسيين المقيمين بالآستانة وهو موضوع دراستنا ثم يصف أزمير ثم يصف مراحل سفره إلى مكّة ويخصّص للحديث عن قيامه بمناسك الحج صفحات قلائل من ص 90 إلى صفحة 96 ويذكر أنه تمكّن مدّة إقامته بالحرمين من معرفة أعلام من علماء الإسلام ثم يتحدّث عن المدينة ومنها رحل إلى دمشق حيث اجتمع بالأمير عبد القادر الجزائري وكانت مدينة بيروت خاتمة المطاف فيصف عودته إلى تونس عن طريق مالطة وبذلك ينتهي الجزء الثاني .

أمّا الجزء الثالث والأخير فيحتوي على تراجم الرجال الذين اتّصل بهم أثناء رحلته .

4 ـــ أهميّة الفصل المقتبس :

إنّما سبب اختيارنا لهذا الفصل ونشره علاقته المتينة بدراسة التاريخ التونسي في القرن التاسع عشر إذ محتواه يمكّننا من إلقاء أضواء جديدة .

أوّلا : على حقيقة مواقف خير الدين وأفكاره قبل مباشرته للحكم بتونس فأثناءها ثمّ بعدَها مع إنارة جديدة لقضيّة الحكم المطلق والحكم الشوري وكيف كان مدار الأمر فيهما أثناء تلك الفترات الحاسمة من التاريخ التونسي .

ثانيا : على إقامة نخبة المصلحين التونسيّين بدار الهجرة بالآستانة وجدوى الهجرة وعدمها .

ثالثا : على نماذج من النثر السياسي .

رابعا : على نماذج من النثر المسجّع .

في الفصل حوار (14) له أهميّة فائقة ترتكز على استجلاء نظرية الحكم المطلق الاستبدادي والحكم الشوري (15) كما كان يفهمها أعلام الفكر وأركان الحركة الإصلاحيّة أمثال أحمد ابن أبي الضياف وخير الدين ومحمد بيرم الخامس والجنرال حسين . ونلاحظ من ذلك الحوار تشدّدا في لهجة محمّد السنوسي يشهد على صدق إخلاص الرجل لحركة النهضة والإصلاح ببلاده كما نلاحظ تراجعا ملموساً في مواقف خير الدين أثناء مباشرته للسلطة وإقراره بذلك التراجع مدّة إقامته بالآستانة وهو الذي سطّر في كتابه أقوم المسالك أنّ الهدف الأسمى من تأليفه إنما هو المساهمة في تحرير الفكر الإسلامي من التقليد وأنّ الحريّة أمر مقدّس بالنسبة للشعوب (16) . فالفصل المقتبس وثيقة بالنسبة لهذا الموضوع .

---

(14) انظر : الفصل المحقق من الرحلة ص 50 : « ... وقد اجتمعت به هنالك عدة اجتماعات فصرح لي في بعضها بغاية ما كان عنده من حيث ... وقال لي ... فقلت له : لا يخفى على سيادتكم أنكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا ... ولو أن سيادتكم قيدتم الدولة بمجلس شوري ... » ص 51 « ... ولكن بشهادة الله أنه تعاطى التصرف في الوزارة ... » ص 52 « ... ولكنه بعد أن استقر في خطة الوزارة الكبرى بتونس ... تنكر لمن كانوا في إعانته ... وأخذ بيده زمام الإطلاق » . ص 53 .

(15) انظر : إتحاف : ج 1 ص ص 6–71 : الملك وأصنافه . ثم ج 5 ص 38 .
انظر : أقوم المسالك : ص ص : 74_80 .
انظر : صفوة الاعتبار : متفرقات ولا سيما فصل 15 ج. 1 .
انظر : المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر 1968 ، ص ص 25–26 .

(16) انظر : الفصل المحقق : ص 53 : « ... فكتبت فصلا افتتاحيا جعلت عنوانه « لا قول إلا بعمل » ... » .

ثم نحن نلمس من خلال هذه الوثيقة خيبة المهاجرين التونسيين (17) الذين كان موقفهم إزاء الباب العالي موقفا عاطفيا (18) فانّهم اكتشفوا أثناء إقامتهم بالآستانة أنّ الحالة بالبلاد العثمانيّة أشدّ سوءاً مما هي عليه بالبلاد التونسية إذ السلطنة كانت تعاني إذّاك سكرات الاحتضار . وقد رأى خير الدين سبيلـه تزداد وعورة ولم يجد بدّا من الانسياق للرضى بالإقامة بالآستانة وإن كان في حقيقة أمره لا يودّها بصفة نهائيّة (19) أمّا الشيخ محمد بيرم الخامس فقد فضّل الهجرة إلى مصر والإقامة بها وأمّا محمّد السنوسي فكان أوفر إدراكا لتشعبات الظرف ودليلنا إلقاؤه السؤال على خير الدين .

فغير خافٍ أنّ مشكلة قد مثلت إذاك في وجه أولئك الأعلام من النخبة التونسيّة المفكرة الحاكمة في تونس وقد خسرتهم تونس إذ آثروا الهجرة إلى البلاد العثمانية وفي اعتقادهم أن تلك الهجرة تمكّنهم من العمل المصلح إلا أنّ آمالهم ضاعت أدراج الرياح . ولعمري قد كان من واجبهم البقاء داخل البلاد التونسية ، لكنّ هجرتهم كانت تحقيقا لنشاط دهاة السياسة الفرنسية فقد شجعوا عليها .

أمّا الشيخ محمد السنوسي فقد اتخذ موقفا أمام قضيّة الهجرة وهو موقف بشّر بموقفه سنة 1885/1302 عندما تزعّم الحركة القومية الأولى بتونس في مكافحة

(17) انظر : الفصل المحقق : ص 54 : « ... وقد أظهرت له (خير الدين) في إحدى الليالي تعجبي من ... فصدق تعجبي من كلا الأمرين وقال لي ... » « ... وقد سمعت ما يقرب من جوابه من بقية الذين ساقتهم المقادير إلى بلاد خلافة الإسلام ... » .
انظر : الرحلة الحجازية : ج II ص 42 : « ... وقد أخبرني الشيخ محمد بيرم أنه عندما ... » .

(18) انظر : بخصوص موالاة التونسيين للخلافة العثمانية : إتحاف : ج V ص ص 131–132 . ج VI ص ص 13–30 .
انظر : H. Laoust : Le réformisme orthodoxe des « Salafiya » R.E.I., 1932, pp. 175-224.

(19) انظر : الرحلة الحجازية : ج II ص 32 « ... لأني لست على يقين من إقامتي في هذا البلد وربما ... » .

الحماية الفرنسية (20) . فأصحاب العقول المفكّرة من التونسيّين الذين فضّلوا البقاء بالوطن على الهجرة إلى تركيا إثر سقوط وزارة خير الدين ، قد كان يأس من هاجر درساً لهم استثمروا فائدته . وعندما انتصبت الحماية الفرنسية بتونس ثبتوا بالبلاد وصمدوا في وجه الأجنبي . وهذا تحوّل في كيفيّة الكفاح فلم يتردد زعماء الإصلاح في الاختيار بين الهجرة وبين الكفاح وجها لوجه بل فضّلوا البقاء .

وبالإضافة إلى هذه النظريات السياسية الّتي تفيدنا بها هذه الوثيقة ولاسيّما نظريّة محمّد السنوسي في الثورة والانقلاب السياسي (21) يلفت نظرنا أسلوبها من ناحيتين ناحية النثر السياسي وإلى جانبها ما كان مستوليا على أقلام العصر – وأسلوب محمد السنوسي أحسن نموذج لذلك – من سجع وتصنّع وبديع ومن هذه الوجهة تدخل هذه الوثيقة في ملفّ قضيّة النثر السياسي بتونس في القرن التاسع عشر .

فهذا الفصل من الرحلة الحجازيّة هو إذن وثيقة تصوّر موقف التونسيّين في ظرف حاسم من تاريخهم إبّان انتصاب الحماية الفرنسية إزاء الخلافة العثمانية من ناحية وقضيّة الحكم السياسي بالبلاد التونسية من ناحية ثانية .

وهي وثيقة جديرة في نظرنا بأن تضاف إلى ملفّ التراث التونسي إذ مقابلتها هي والآثار الأخرى للمؤلّف ومعاصريه بما طبع وبما يطبع من شأنها أن تلقي أضواء جديدة على التاريخ التونسي في القرن التاسع عشر .

---

(20) انظر : محمد السنوسي : خلاصة النازلة التونسية . مخطوط رقم 16635 · دار الكتب الوطنية بتونس . ص.ص. 12 ـ 50 .

(21) انظر : تحقيقنا للفصل المقتبس . ص : 54 . وعند ذلك قلت له : « أما الاستبداد بشرط الصدق والنصيحة فلا يخفى أنه ... » .

يحيى رطلة رض امن به املهم وصـ ، فلا ابن حصولها ما نصوب مغني با

بـر هـا المابا صوا را عضابه ، صهو امهره يجني الغيب مصحا

الهبا عـزط باصاح اشـ عا دفـلـا ، من فـي خـه حسرا و عاصي و ضـ

وا شـ كا النكي و هو او فـد ، كـرية العصة بيما كان او حسب

بعض هيـها وفيها انه معشـرا ، وضل الذي كل ايبها احار او صعد

ء امتعطاليد الاسوى مر هـع ، با و بهـا كل من فم نا الوفو به

وا دو بن فنطل ضهيب اعهى بيتخو فلـ ، اصعو ماعر و اما مو ل مرابـ

، كنهم من نهر سبيلر في ، ر ، حمة نة ،

ا خها . ان اعنيها اتو فسى خيم ابو بن هلشا بعد انفصاله من ابو زا ، رة انو نيفى للوصا ، و انظامع ، و انبيه ملا ينشعن لي ابده تيبه له اشتغل البلها خلافة بلهي مثل اصلحا ، وا مده اشتى موضـا مه وا لـم م اسلطان نهاه وا دا مرفا منه مجلس فنهه انه لمه ر ا نصـوا رحم اعتقـو في نهاز اعتـه كـهبته ، و يبني منعل بلا كها مات اسطها بنهاخما ر كصويلة و عشماطها با بلا ما نو فسه ما فيهما لا ابو له ، بونزا و جهمصدى ابن اسعيد خو هي تب ابيه لا ما . رمتم بافنا الذي كان ويه بها الهه تونس وفضل اداه ابو مهر خرج منها فشى مجر بيهو انه كان بن بحب ـة الا وفلع ونالهم المعجم وعنه بلاد صفانه ايضا وخرج منها امي الـسوا .

محمد اعهم نيفه اذ كان بن الجلها اصير و يحي بلا مثلثة ابطا و بعد عنه ابيه لا مهر ، حسن الذي كان مستنا را لكلمة با بطا رم مفيها سعد فو ند ـ نازلة فانفصاموا الى ابو له اعطتو فسهم فصامه طرا بط متهو د ا مر انعام المنصور . الى من الامير مهم فتم انه اشتهو ا بطا مها سفانه لنهوحه ما عنه حر اربعة

بعلو يصال ابدا بقوله •

خليلي ان ابعد ابني تغيب • وابقى مرام بعد حين انتهى بجنبه

لذاته يا ني فنها فالله اقضي • احزان الحوادث وكل امر لعله

• حين صنعه للعشاق والحضر •

بسلامي واجفان امرا بعولها رسمها • ومن وده اخواني فسامى بر بعدها

نسي الهام للابناء تجود صلوتها • ومانا ابا الابان حسبي رضيعها

• ولا بد من شوقها ان ضيع الاولم •

وقد كان اظنه كما ان يزيغني الدار، بعد الاقتداء عن ضيعة الا فناء وسكن الا جواه عنه ان يذهب الطبيعة نزار لا اصبر الصحيبة فيبقى اصبر اني مولات الهوى، وزيادة في ضيعة على الشيء وذلك اعظم ما نا قرله اصبوره، ويصح او لولا الكلام انه ولو عمر ابني وبه سال الله حسنا بموع والبابه، وان ينفعنا بحسن ضهولك وجمع امثل بالحباء ان كرمه بوصابه. وقد قصر ما رام ذات وحله اصبح صله عن اعيني وقومه ف حسن عهد كم المبارك عذراني فتصلونا بدعاء عن كلمه غيب واني عمو كل حال الكريم، دام بموع للمالة ونجام الاعمال. وامر فقهم ان جزه بحو العشرة الايام، فسال الله ان يجمع لنا بهما امهات الاهلين، ويعلي الله الاعتماد في مبلغ الامن وجمعنا فضل الكتب. ونرجوا ان يطلع حيا وجنات احبكم موريا لكم الله منه من برانه يلهج بحمده وحسن انابته كما يطلع ان نامنا لجمع الشمل وعلى الخصوص ابنا فنا اصحا، ها ما الله وجملة اقبا عكم في ما هم ما دام الله صحتكم وقبلكم الجميع جانبا نبيي الشيخ والسلام محبكم [illegible] شهركم [illegible] في [illegible] سنة ١٣٦١

م

2) تحقيق الفصل :

الخبر عن التونسيّين فى الآستانة (1)

لا خفاء أنّ الوزير التونسيّ خير الدين باشا (2) بعد انفصاله من الوزارة التونسيّة (3) للأسباب الظاهرة والخفيّة (4) ممّا لا يشذّ عن تاريخ البلاد تيسّر له التنقّل لبلد الخلافة بأمر من السلطان (5) بواسطة الشيخ محمّد ظافر (6)

---

(1) هؤلاء التونسيون هم نخبة من زعماء الإصلاح بتونس في النصف الثاني من القرن العشرين : خير الدين ورستم ومحمد بيرم V ومحمد العربي زروق . وقد اضطرهم انتصارهم للخلافة العثمانية بعد فشل وزارة خير الدين إلى الهجرة من تونس إلى الآستانة .

(2) ولد حوالي سنة 1820/1236 وأصله من قبيلة أبازه الضاربة بجبال الجركس في شمال غربي بلاد القوقاس . ودخل تونس حوالي سنة 1838/1255 وتوفي بالآستانة في 8 جمادى الثانية 30/1307 جانفي 1890 ونقل جثمانه إلى تونس في 28 مارس 1968 واحتفل بدفنه بمقبرة الشهداء في 9 أفريل 1968 . انظر : ترجمته المراجع الآتية حسب الترتيب الزمني :
— إتحاف : ج IV ، ص 156 ؛ ج V ، ص ص : 19—32—42—63—95—96—97—99—
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 181-225
— مجلة الثريا : عدد 6 . سنة 1944 : خير الدين : مقال للفاضل ابن عاشور .
J. Ganiage : Les origines du Protoctorat Français en Tunisie, Paris, 1959 pp.. 81 و 371—374 و 433 و 483
— المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر . 1968 . 31 ص. .
— محمد الصالح مزالي : من رسائل ابن أبي الضياف ، تتمة لإتحاف أهل الزمان ، [رسائله مع خير الدين] ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 ، ص ص : 79—83 .
— محمد الصالح مزالي : أحوال تونس قبيل الاحتلال ، [رسائل انطوان كونتي لخير الدين] ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1969 ، ص ص : 9 ، 46 ، 59 .

(3) في رجب 22/1294 جويلية 1877 .

(4) انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 471-476

(5) الغازي عبد الحميد الثاني (1842—1918) دامت خلافته من 1876—1909 . انظر : ترجمته : دائرة المعارف الإسلامية . ط 2 ((E.I., 2)) ، مجلد 1 ، 65—67 (مقال J. Deny) محمد السنوسي : الرحلة الحجازية (مخطوط) ، ج II ، ص ص 38—48 . في خصوص استقدام السلطان عبد الحميد خير الدين إلى الآستانة لتوليته الصدارة العظمى انظر أسفله تعليق رقم 66 .

(6) محمد بن حسن بن حمزة بن عبد الوهاب ظافر المدني ولد سنة 1827/1244 بمسراته حين انتصب أبوه الشيخ حسن المولود بالمدينة 1774/1194 ينشر الطريقة المدنية الشاذلية بعد أن طوف بالمغرب الأقصى وطرابلس ومصر . وإلى هذا الشيخ ارتحل شاعر تونس محمود قبادو لأخذ الطريقة وخلف محمد أباه في نشر الطريقة فاستقدمه السلطان عبد الحميد عند ولايته وكان أخذ عنه الطريقة قبل سلطنته فاستخلصه لنفسه وحصلت للشيخ محمد ظافر بذلك وجاهة عظمى بالآستانة . (انظر : الرحلة الحجازية . ج II ص 42 ، ج III ص ص : 2—5) .

وأكرم السلطان نزله (6 مكرر) وأولاه رئاسة مجلس شورى الدولة (7) والصدارة العظمى (8) ثمّ تنازل عن وظيفته (9) وبقي منعّما بالإكرامات السلطانيّة في أخبار طويلة (10) .

وعندما حاق بالبلاد التونسيّة ما غيّر حالة الدولة بوزارة مصطفى بن إسماعيل (11) خرج منها أمير الأمراء رستم باشا (12) الذي كان وزير الحرب

(6 مكرر) خصص له السلطان مسكنا بقصر « دلمى يقشي » وهو قصر من المرمر شيده السلطان عبد المجيد سنة 1853 . انظر : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 214.

(7) هذا المجلس متركب من عضوين انجليزيين وآخرين فرنسيين بتعيين من حكومتيهم ومن عدد من الموظفين العثمانيين . ومهمة المجلس تنظيم المالية العثمانية وأسندت رئاسته لخير الدين بعيد وصوله إلى الآستانة وبقي على رأسه إلى 8 ذي الحجة 1295/3 ديسمبر 1878 انظر : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 216.
— : م . ص . مزالي : أحوال تونس قبيل الاحتلال ... ، ص : 46 .

(8) في 9 ذي الحجة 1295/4 ديسمبر 1878 .

(9) في 25 رجب 1296/منتصف جويلية 1879 .

(10) لم تنقطع صلة خير الدين بالسلطان عبد الحميد الذي بقي يدعوه للاستشارة من حين لآخر وقد تخلص خير الدين بقوله لما حاول السلطان إقناعه بالرجوع لمنصب الصدارة : « إن ذلك لا يكون مجديا إلا بحصول أمرين هما صبر أيوب وعمر نوح ومن يضمن لي ذلك ؟ » انظر : م . ص . مزالي : أحوال ... ص 59 وكان خير الدين من بين الوزراء الذين منحهم السلطان مواضع لبناء قصور بقرب يلدز . قال الشيخ محمد السنوسي في الرحلة الحجازية : ج II ص 32 : « وعند دخولي بالآستانة كان قصره (خير الدين) شارف التمام وقد دعاني للتفرج فيه ... » .

(11) ولد مصطفى بن إسماعيل ببنزرت حوالي سنة 1267/1850 وتولى الوزارة الكبرى بتونس في 25 شعبان1295/24 أوت 1878وأبعد عنها في 17 شوال 1298/12 سبتمبر 1881 . ولما اقترحت فرنسا على البـاي إقصاءه عن الحكم جاز لأحد موظفي السفارة الفرنسية أن يكتب : « كـان فراقه أوقع على نفس الباي من فقد الاستقلال » . ومات مصطفى بن إسماعيل بالآستانة سنة 1304–1305/1887 على حالة فقر لا مزيد عليه . انظر : ترجمته : المخطوطة بعنوان « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » : دار الكتب الوطنية ، تونس . رقم 03749 . انظر أيضا : م . ص . مزالي : أحوال ... رسالة عدد 6 ص : 53 .
J. Ganiage : Les origines... pp. 433, 475 et 483.

(12) مملوك جركسي قدم تونس في عهد أحمد باي ودرس بمكتب الحرب بباردو وولي وزارة الحرب بالدولة التونسية من جمادى الأولى1287/أوت1870 إلى شعبان 1295/أوت1878 وتوفي بالآستانة في صفر 1304/نوفمبر 1886 . انظر : ترجمته : إتحاف : ج V ص 29 .
انظر أيضا : م.ص. مزالي : من رسائل ابن أبي الضياف : ص ص : 32–56–66 .
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 83 et 478, n° 101.

بتونس وتنقّل أوّلا إلى مصر . وخرج منها الشيخ محمّد بيرم (13) الذي كان رئيس جمعية الأوقاف (14) وناظر المطبعة (15) ولحق بالآستانة أيضا . وخرج منها أمير اللواء محمّد العربي زرّوق (16) الذي كان رئيس المجلس البلدي (17)

---

(13) محمد بيرم V ولد بتونس في المحرم 1256/مارس 1840 . كلفه خير الدين في صفر 1291/مارس 1874 بإدارة جمعية الأوقاف فانتخب تلميذه محمد السنوسي كاتبا أول بتلك الجمعية . وفي ربيع الاول 1292/ماي 1875 كلف خير الدين بيرم V بإدارة المطبعة فانتخب بيرم محمد السنوسي محررا لجريدة الرائد التونسي في 5 شعبان 1293/26 اوت 1876 . والملاحظ أن الشيخ محمد السنوسي عند تخليه عن منصبيه بجمعية الأوقاف والرائد في 5 رجب1298/3 جوان 1881 خلفه في المنصبين الشيخ أحمد الورتاني . وقد ساهم الشيخ محمد بيرم V في تهيئة برامج المدرسة الصادقية 1292/1875 وفي تأسيس المستشفى الصادقي وتنظيمه 1297/1879 . وقد حاول أثناء قيامه بمهمة إلى باريس في منتصف عام 1297/1879 إقناع غنبيطه Gambetta رئيس الحكومة الفرنسية بضرورة تبديل القنصل الفرنسي بتونس رسطان Roustan ولكن دون جدوى. وفي 9 ذي القعدة 1297/13 أكتوبر 1879 غادر الشيخ محمد بيرم V تونس نهائيا بمناسبة القيام بفريضة الحج فاستوطن أولا الآستانة إلى نوفمبر 1884 ثم توجه إلى مصر حيث توفي في 25 ربيع 1307/18 ديسمبر 1889 . انظر : ترجمته : محمد بيرم V : صفوة الاعتبار بمستودع الاقطار والأمصار ، القاهرة . 1302—1311 . ج V

– Revue Tunisienne : n° 22. 1935, p. 232.

– دائرة المعارف الإسلامية . ط (1 ,.E.I) مجلد III ، 731 (مقال M. Bencheneb).

– J. Ganiage : Les origines... p. 559 n° 89.

– محمد السنوسي : الرحلة الحجازية : ج II ص ص : 39—40 .

– زين العابدين السنوسي : محمد بيرم V : دراسة ونصوص ، تونس 1952 .

– محمد الفاضل ابن عاشور : أركان النهضة الأدبية بتونس ، تونس 1965 ص ص 15—28 .

– فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1914 ص ص 64—65 ، 139—141 .

(14) أسس خير الدين جمعية الأوقاف بمقتضى أمر 19 مارس وأمر 2 جوان 1874 .

(15) سمى خير الدين محمد بيرم V مديرا للمطبعة وللرائد في ماي 1875 والملاحظ أن محمد الصادق باي كان أسس المطبعة في 20 جويلية 1860 لإصدار الرائد التونسي وجعل نظر المطبعة لحسين رئيس المجلس البلدي . انظر :

إتحاف : V 32 ; Revue Tunisienne : 1939 ; I.B.L.A. 1954, pp. 138-139 ; A.G.T. Carton Z 531, 3 ; Arch. Consulat Britannique à Tunis, L.B. 28.

(16) غادر محمد العربي زروق تونس نهائيا سنة 1881 إثر انتصاب الحماية الفرنسوية بعد أن كان مديرا للمدرسة الصادقية منذ تأسيسها في فيفري 1875 ورئيسا للمجلس البلدي . انظر :

Revue Africaine. XXII, 1878 ; R.A. 1954, p. 165 ; J. Ganiage : Les origines... pp. 481-482, 538-539.

انظر أيضا : إتحاف : ج VII ص 130 .

(17) تأسس المجلس البلدي بتونس في محرم 1275/أوت – سبتمبر 1858 وترأسه مدة خمس سنوات أمير اللواء حسين . انظر : إتحاف : ج IV ص 255 ، ج V ص ص 32 ، 99 . انظر أيضا : الثريا : عدد 3 1944 وصفوة الاعتبار : ج III ص 22 . ملاحظة : تركب المجلس البلدي عند تأسيسه من عشرة أعضاء ولذلك سمي مقره دار العشرة : دار حسين اليوم حيث إدارة الآثار بتونس .

ولحق بالآستانة أيضا . وبعد عزل أمير الأمراء حسين (18) الذي كان مستشارا مكلّفا بالمعارف (19) مقيما ببلد قرنة (20) في نازلة قابض أموال الدولة القائد نسيم شمّامة (21) صار أيضا متردّدا في اتّخاذ المقرّ .

وآل من أمر رستم أن التحق أيضا بالآستانة لتزوّجه بابنة خير الدين (22) (ص 49) هنالك حيث كان عاقداً عليها بتونس وأقام بها في كنّ بيته متمتّعا

---

(18) هو رجل من الجراكسة أتى إلى تونس وسنه دون العشرة فربـي في سراية الباي حسين وأدخل إلى مكتب الحرب بباردو فتعلم العربية والفقه والفرنسية والتركية والفنون العسكرية وتتلمذ لمحمود قابادو وللشيخ بيرم IV والشيخ ابن الخوجة وساهم مع خير الدين في الحركة الإصلاحية بتونس وتوفي بإيطاليا بمدينة بيرنسي في 6 ذي القعدة 27/1304 جويلية 1887 . انظر : ترجمته
Archives Gouvernement Tunisien : Coresp. Cons. Française
J. Ganiage : Les origines... p. 83.
انظر أيضا : الثريا ، عدد 3ـ1944 .
انظر أيضا : إتحاف : ج IV ص : 255 ، ج V ص ص : 19، 32، 42، 99 .
انظر أيضا : صفوة : ج III ص 22 . انظر أيضا : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج II ص 102 . انظر أيضا : أحوال : ص 42 . أنظر أيضا : رسائل : ص ص : 18، 23، 60، 63، 67، 79، 81، 84، 86 . انظر أيضا : الرائد التونسي : 20 ربيع الأول 4/1277 أكتوبر 1860 .

(19) سمـي حسين أمير أمراء سنة 1861/1278ـ1862 ووزير استشارة سنة 1873/1290 ووزير العلوم والنافعة في شوال 1291/نوفمبر 1874 إلى أن أفضى الأمر عند انتصاب الحماية الفرنسوية إلى عزله من وظائفه ومن تجريده من نياشينه سنة 1881/1299 . انظر : محمد الطاهر ابن عاشور : أليس الصبح بقريب . تونس 1967 . ص : 118 .

(20) هي مدينة ليفورنيه Livourne أقام بها حسين مرة أولى سنة 1871 ومـرة ثانية من سنة 1873 إلى سنة 1881 مصحوبا بكاتبه الشيخ سالم بوحاجب لتتبع ورثة القائد نسيم شمامة فيما تخلد بذمة مورثهم لفائدة الصندوق التونسي .
انظر : J. Ganiage : Les origines... p. 559.
نظر أيضا : الثريا : عدد 3 و5ـ1944 .
انظر أيضا : أحوال : ص42 .

(21) نسيم بن بيشي شمامة الإسرائيلي ولد بتونس سنة 1805/1220 قدمه الباي رئيسا على يهود تونس في جميع ما يخصهم في ربيع الأول 1276/أكتوبر 1859 برتبة قائد وبعد أن أمن على أموال الدولة من سنة 1859/1276 إلى سنة 1864/1280 رخص له مصطفى خزنة دار بمغادرة الإيالة نهائيا دون أن يطالب بأية محاسبة في تصرفاته وتسبب عن ذلك تتبع ورثته . فأقام نسيم مدة في باريس ثم استقر بالقرنة حيث توفي في 25 ذي القعدة 24/1289 جانفي سنة 1873 . انظر :
J. Ganiage : Les origines... pp. 183-184, n° 19, 749-752
Revue Tunisienne n° 22, 1953, p. 225.
انظر أيضا : إتحاف : ج V ص 16 . انظر أيضا : الثريا : عدد 3، 1944 .
انظر أيضا : أحوال : ص 54 تعليق 15 وص 42 تعليق 6 .

(22) هي محبوبة بنت جنات بنت مصطفى خزنة دار . ولدت سنة 1864/1280 . انظر :
Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 182.

بثروته التونسيّة . وبقي حسين مطلوبا للبناء على البنت الثانية (23) التي عقد عليها بتونس أيضا . وقد حمّلني رسالة شفاهيّة إلى صهره (24) في الاعتذار الذي آل بعد ذلك إلى الفراق قبل التواصل (25) وكان يقول : « إنّ صهره عقله وعقل رفيقه رستم عن تزوّج بنات وليّ عهد تونس (26) قبل شيخوختهما التي تمنع من ذلك التزوّج » .

وعند دخولي للآستانة وجدت بها أولئك (27) الأعيان من أهل تونس (28) تحت ظلّ حماية السلطنة العثمانيّة . أمّا خير الدين فكان ملحوظا بمزيد الإكرام والاعتبار من شخص السلطان وإن لم يرض عنه رجال الدولة (29)

---

(23) البنت الثانية هي أم هاني أخت محبوبة ولدت سنة 1866/1283 وتزوجت بكار زروق .
انظر : Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 182.

(24) هو خير الدين .

(25) سبب الفراق قبل التواصل بابنة خير الدين هو أن حسين اقترن مدة إقامته بالقرنة بفتاة إيطالية من فيرنزه هي الست أنجلينة وقد أنجبت منه ابنتها : فريدة : التي تزوجت المناضل علي باش حامبة . انظر : أحوال : ص 42 تعليق 6 .

(26) هو علي بن حسين ولد في ربيع الأول 26/1233 جانفي 1818 . ولي المملكة التونسية في 9 ذي الحجة 28/1299 أكتوبر 1882 وتوفي في 4 ربيع الأولى 11/1320 جوان 1902 .
انظر : م ص . مزالي : الوراثة على العرش الحسيني . تونس 1969 ص ص 12 ، 38
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... p. 98, n° 57.
انظر أيضا : E.I. l'Ed. art. Husaynides. R. Mantran

(27) في النص : أولائك .

(28) وصف الشيخ محمد السنوسي في الجزء الثاني من هذه الرحلة الحجازية ص 10 سفره من ايطاليا الى تركيا ودخوله للاستانة بقوله : « وقد كان سفري للقسطنطينية من بلد قرنة فركبت البحر يوم ثلاثين شعبان بمشايعة امير الامراء حسين المكلّف بالمعارف العمومية بتونس واتباعه. وعند وصولي الى نابلي يوم رمضان تلقّاني ابراهيم باي المويحلي المصري واكتريت مع شركة المساجري. فكان الركوب في اضخم البوابير البحرية التي اختصّت بتلك الشركة لسفرها في البحور الكبرى. وسافرنا باكرة ثاني رمضان وكان الجوّ في غاية الصفو .... ودخلتها (القسطنطينية) عند الغروب من سادس شهر رمضان المعظم سنة 1299 [22 جويلية 1882] وتلقّاني في بوغازها كلّ من وكيل التوانسة سابقا الثقة التاجر الاكمل عمر رواي والماجد الاعزّ الابرع محمد الهادي بيرم مرسلا من والده لمرضه والمرعي العربي بستّيس. ونزلت في دار سكنى العلّامة النحرير الماجد الشيخ محمد بيرم .... وأقمت بها (القسطنطينية) الى يوم الاحد الثاني عشر من ذي القعدة. فككانت مدّة اقامتي بها (القسطنطينية) أكثر من شهرين تتبّعت فيها ما تيسّر لي من وجوه المطالعة . هـ »

(29) مل خير الدين من الدسائس والخزعبلات التي كان يعانيها يوميا وكلما أراد إصلاحا وجد أمامه من دأبهم المعارضة والمراوغة والمماطلة . انظر : أحوال : ص 59 تعليق 2 .

ولا عموم الأهالي لكونه دخيلا على الدولة . وقد لاقى من مضادّة الخاصّة ما لم يمكنه معه البقاء على منصبه . أخبرني الشيخ محمّد ظافر بأنّ سعايات مصطفى ابن إسماعيل في الآستانة بلغت إلى أنّ بهرام آغة (30) قال للسلطان : « إنّ خير الدين هو الذي أعطى البلاد التونسيّة لدولة فرنسا ومنحها مدّ السكّة الحديدية (31) وسهّل لها جميع الطرق وبعد خروجه لم يمكن لخلفه مصطفى ابن إسماعيل أن يرجع شيئا ممّا أسّسه خير الدين حتى إنّ الأساطيل الفرنساوية لمّا قدمت لتونس أقامت في النفيضة (هكذا قال) التي باعها لهم خير الدين (32) » . وبسبب ذلك حرّروا فصولا في بعض تفاصيل نشروها في صحيفة الوطن المصريّة (33) وقدّموها للسلطان لدفع ما عرض عليه في شأن خير الدين يظنّون بها دفع ما أكّده المصدّقون .

وعند دخولي إلى الآستانة وجدت المحرّر سليم الشدياق (34) طبع ترجمة المحاكمة التي جرت بين قنصل فرانسا بتونس رسطان (35) وبين محرّر

(30) بهرام آغة عبد خصي اتخذه السلطان عبد الحميد الثاني باش آغة انظر : الرحلة : ج II ص 41 .

(31) انظر : V. Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 204-207.
V. J. Ganiage : Les origines... pp. 469-470.

(32) النفيضة : اسم هنشير كان المشير الصادق باي أعطاه لخير الدين سنة 1871/1288 عند صدور الفرمان في إثبات حق الوراثة للحسينيين على عرش تونس مع ضبط ارتباطهم بالدولة العثمانية بفضل المفاوضات التي تولاها خير الدين بالآستانة . انظر :
V. Revue Africaine : 1955, pp. 342-345.
V. Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 208.
انظر أيضا : أحوال : ص 61 – رسائل : ص 85

(33) جريدة أسبوعية سياسية أدبية تجارية أنشأها ميخائيل عبد السيد سنة 1877 في القاهرة . انظر : فيليب دي طرازي : تاريخ ... ج III ص 9 .

(34) سليم بن أحمد فارس الشدياق درس بالمكتب الحربي بباردو وانتقل إلى الآستانة معينا لأبيه في إدارة جريدة « الجوائب » وتحريرها . والملاحظ أن والده قدم لتونس باستدعاء المشير الأول أحمد باي للخدمة بالمملكة وبتلك المناسبة اعتنق الدين الإسلامي بعد أن كان على مذهب البروتستنت وصار يسمى بالشيخ أحمد فارس الشدياق . انظر : فيليب دي طراز : تاريخ ... ج I ص ص : 96–97 .

(35) تيودور رسطان Theodore Roustan ولد بايكس اين بروفانس Aix-en-Provence بفرنسا في 8 أوت سنة 1833 وتوفي في 8 أوت سنة 1906 سمي قنصلا عاما لفرنسا بتونس في 17 ديسمبر 1874 ووزيرا مقيما بتونس في 13 ماي سنة 1881 . انظر : ترجمته :
J. Ganiage : Les origines... pp. 445-446, n° 23.

« أنترانسيجان » رشفور (36) بالقلم العربي لما تضمّنته من تفاصيل أسرار الوقائع التونسيّة . وكان طبعها على (ص 50) نفقة التونسيّين بعد أن حرّرتُ عن علاّلة بن الزاي (37) في بلد إيطاليا (38) كثيراً من أسرار مخدومه مصطفى ابن إسماعيل بطلب من أمير الأمراء حسين حيث أراد منّي ذلك الغرض فحرّرته في بعض كراريس ينسبها الناس إليه (39) فرفع ستار تلك الأسرار وقد وجّهها إلى الآستانة أيضا .

وعلى كلّ حال فإنّ السلطان لم يضع من جانب خير الدين وأغضى عنه

(36) جرت هذه المحاكمة بباريس ودامت ثلاثة أيام : 13—14—15 ديسمبر سنة 1881 . انظر :
J. Ganiage : Les origines... pp. 685-693, le procès de l' « Intransigeant ».
انظر أيضا : الرحلة : ج II ص : 43 .

(37) كان معينا لمصطفى بن إسماعيل وكانت له سطوة نادرة على قلبه ويعد من أهم عناصر الفساد بالقصر الملكي . وقد استعمله القنصل رسطان في التجسس على ابن إسماعيل وعلى الباي محمد الصادق وكان له نفوذ عظيم عليهما بلغ درجة سمحت لجريدة « مستقبل صردانيا » أن تنعته بلقب : « كاهية الوزير الأكبر » وكان علالة ترقى إلى رتبة : « آلاي أمين » بمقتضى أمر مؤرخ في 18 جوان 1879 إلا أنه بعد ذلك بقليل جرد من رتبته العسكرية ونفي إلى جزيرة جربة مع سجنه ببرج المكان وذلك إثر نازلته مع الشيخ محمد الطاهر النيفر القاضي المالكي . انظر : أحوال : ص ص : 49—50، 53 .
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 480, 559 et 561.

(38) أقام الشيخ محمد السنوسي بإيطاليا من يوم السبت 10 رجب 1299/28 ماي 1882 (انظر : الرحلة. ج I ص 28) إلى يوم الثاني من رمضان 1299/18 جويلية 1882 (انظر : الرحلة . ج II ص 10) فكانت مدة الإقامة شهرا وثلاثة أسابيع .

(39) لعلها المخطوطة الموجودة بدار الكتب الوطنية بتونس مجهولة المؤلف تحت عنوان : « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » رقم 03749 (أوراق 31— مسطرة 16 — مقياس 3، 22×6، 16) . تبتدىء هذه المخطوطة هكذا : و : 1 ب « بسم الله الرحمان الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما . الحمد لله . هاته نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل وما جرى في أيام تعلقه بالدولة الصادقية من التقلبات والحوادث المؤلمة التي كانت نتيجتها احتلال الفرنسيس لهاته الديار التونسية واستيلاؤهم على زمام إدارتها والضرب على أيدي ولاة أمورها من التصرف في أمورها واستعباد أهلها وإرسال سهام الاستبداد والذل على أهلها والله عليم بما يعملون » . ويلي هذا الاستهلال ثلاثة فصول : 1=في منشأ مصطفى بن إسماعيل . 2= في بعض أعماله مع مخدومة . 3= في سبب دخول الفرنسيس لتونس . ثم يلي هذه الفصول فصل رابع يحتوي على تقرير من علالة بن الزاي في خدمته الحقيقية مع دولة فرانسا منقول من خطه وبوسطه ذكر مقتل العادل باي ومقتل الطاهر باي . وتنتهي المخطوطة بما يلي : و31 أ : « انتهى ما وجد من هاته النبذة التاريخية والتقرير الذي سطره علالة بن الزاي في تسطير خدمته مع دولة فرانسا وهو لعمرو الحق من الخائنين لبلاده وخالقه وقد جوزي في آخر مدته على مقتضى ما يستحقه وما ربك بظلام للعبيد » . وقد حققنا هذه الوثيقة وهي تحت الطبع

وهو منه في احتراس حتّى لم يسمح له بالتداوي في بلد أوربا تخوّفا من خروجه وأعانه على إحضار من شاء من الأطبّاء وأخبار ولاياته وتصرّفاته غير شاذّة عن الدواوين (40) .

وقد اجتمعت به هنالك عدّة اجتماعات فصرّح لي في بعضها بغاية ما كان عنده من الكدر من حيث أنّه عند مفارقته لمنصب الوزارة الكبرى (41) رأى جميع خاصّته وخاصّة الدولة وأعيان الأهالي تسارعوا لبستان مصطفى بن إسماعيل (42) لكون الصادق باشا (43) أولاه وزيراً مباشرا (44) بإعطاء خطّة الوزارة الكبرى لأمير الأمراء مَحمّد خزنة دار (45) وقال لي : « إنّ ذهاب أولئك الأعيان لتهنئة مصطفى بن إسماعيل إغراء للباي على إعطائه خطّة الوزارة الكبرى بعد حين . ولو أنّهم تركوه ولم يذهبوا له بالمرّة لما تجاسر الباي بعد ذلك على ترقيته لخطة الوزارة الكبرى (46) » . فقلت له : « لا يخفى على سيادتكم أنّكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا وما يخشاه الأعيان والمتوظّفون

---

(40) الدواوين : الشرطة السرية لعبد الحميد .

(41) في 11 رجب 22/1294 جويلية 1877 .

(42) خير الدين يعرض بالشيخ محمد السنوسي الذي نظم قصيدا نشر في الرائد في مدح مصطفى بن إسماعيل .

(43) ولد في5 صفر 7/1228 فيفري 1813 وولي في 23 صفر 22/1276 سبتمبر 1859 وتوفي في 15 ذي الحجة 28/1299 أكتوبر 1882إتحاف : ج 5 . انظر أيضا : م. ص. مزالي : الوراثة على العرش الحسيني . ص ص 11، 34–38 .
انظر أيضا : E.I. 2ème Ed. art. Husaynides. R. Mantran
J. Ganiage : Les origines... pp. 89-97, 121-124.

(44) في رجب 1294/جويلية 1877 . انظر : J. Ganiage : Les origines... p. 476.

(45) محمد خزنة دار مملوك أصله يوناني ولد حوالي سنة 1810/1225 بجزيرة كوس Cos . ترعرع بين مماليك حسين باشا باي وارتقى إلى خطة خازن مال شاكير صاحب الطابع ثم ولي عاملا بسوسة والمنستير سنة 1838/1254 . وسمي وزيرا للداخلية في جمادى الاولى 1278/ نوفمبر 1861 ووزير الحرب في رجب 1279/ديسمبر 1862 ثم وزيرا للداخلية في ربيع الثاني 1282/سبتمبر 1865 ثم وزيرا أكبر في 11 رجب 22/1294 جويلية 1877 واستعفى من منصبه في 25 شعبان 24/1295 أوت 1878 ثم سمي مرة ثانية وزيرا أكبر في 17 شوال 12/1298 سبتمبر 1881 واستعفى لكبر سنه في سنة 1883/1300 وتوفي بالمرسى في 23 شوال 22/1306 جوان 1889 . انظر : ترجمته : J. Ganiage : Les origines... p. 82.
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 203.

(46) في 24 أوت 1878 .

وخاصّة رجال الدولة من ملوك الإطلاق قاض عليهم بتهنئة كلّ مسؤول إظهاراً للرضى الذي لم يكن الملك متوقّفا (47) عليه . ولو أنّ سيادتكم قيّدتم الدولة بمجلس شوري (48) مدّة وزارتكم الكبرى ما أمكن استبداد الملك بما حصل ولا اضطرّ الأهالي لما كان منهم » . وهنا نذكر أنّ هذا الوزير قد أمكنه أن جمع إليه في مبدإ أمره خاصّة من عقلاء الرجال بتونس (واستعمال مصطفى بن إسماعيل المقرّب عند الباي بترقيات وعطايا ووعود) (49) وبذلك السلم ارتقى إلى خطّة الوزارة الكبرى بتونس بعد إسقاط صهره ووليّ ترقيته مصطفى (ص 51) خزنة دار (50) ولكن (51) بشهادة الله أنّه تعاطى التصرّف في الوزارة بطريقة جدّية سلك بها مسلك التنظيمات (52) فنفع البلاد ودفع

---

(47) في النص : متوقف .

(48) كانت المحاولة الأولى لإحداث مجلس شوري بالبلاد التونسية فاشلة وحاصل الأمر أن المشير محمد الصادق باي ألزم إتماما لقانون عهد الأمان بتكوين مجلس شوري سمي بالمجلس الأكبر تركب من ستين عضوا : عشرون من رجال الدولة وأربعون من أعيان الحاضرة . وافتتح محمد الصادق باي الجلسة الأولى لهذا المجلس في 24 أفريل 1861 . وقد جسمت هذه المؤسسة استبداد المماليك بالسلطة دون الباي فبادر إلى إبطالها في 30 أفريل سنة 1864 ، بمناسبة ثورة علي بن غداهم . انظر : إتحاف : ج V ص ص 33—38 .
انظر أيضا : Revue Tunisienne, 1939, p. 70 : 1935, p. 220.
J. Ganiage : Les origines... pp. 76-88.
Fitoussi-Bénazet : L'Etat tunisien et le protectorat fran çais, pp. 52-117.

(49) زيادة في الطرة بخط المؤلف .

(50) مصطفى خزنة دار مملوك أصله يوناني واسمه الحقيّ : جورج كلكياس سترافلكيس Georges Kalhias Stravelakis ولد بجزيرة شيو Chio في سنة 1817 . قدم تونس صغير السن فأدخل دين الإسلام وسمي مصطفى وترعرع في سراية حسين باي مع تربه الأمير أحمد الذي سماه ، عندما ولي العرش الحسيني سنة 1837 خزنة دار مكان شاكير ثم زوجه أخته كلثوم . وهكذا أصبح مصطفى صهرا لحاكم البلاد ووزيرا في الدولة وسنه دون الخامسة والعشرين . وتوفي في 26 جويلية سنة 1878 . أما بخصوص التهمة الموجهة ضد خير الدين بكونه أسقط مصطفى خزنة دار من الوزارة الكبرى فتجدر الملاحظة أن خير الدين دفعها عن نفسه سواء عن طريق أعضاده ومن بينهم أمير الأمراء حسين أو بنفسه . انظر : Revue Tunisienne n° 22, 1935, p. 230.
انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 89-98, 179-195, 202-217, 279-321, 422-443.

(51) في النص كذا : لاكن .

(52) انظر : إتحاف . ج V ص58. انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp. 371-374.

مها كثيراً من غائلات ما كانت عليه وزارة مصطفى خزنة دار (52 مكرر) . وتلك سنّة في المتوظّفين يسلك المتولّي منهم ضدّ ما كان عليه المتخلّي ممّا كان سبباً للانتقاد على المتخلّي سيّما وقد صادف ذلك من هذا الوزير أمرين مهمّين : **أحدهما** بلوغه في الثروة من وزارة سلفه إلى المبلغ الذي أقنعه عن مزيد التطلّب لما في يد غيره فجمع ليده الخاصّة أعزّ أملاك الدولة ونتائج بصاهرته لمصطفى خزنة دار ودخل للدولة عند انتصاب الكومسيون (53) بعد تأخّره في بيته مدّة (54) فكان تصرّفه بمشاركة الأعضاء الأجانب الذين يحرسون المال لحقوق أربـاب الديون (55) وفي مجموع ذلك مقتض للعفّة ومانع من غيرها . **والأمر الثاني** : هو أنّه وإن لم يتعلّم العلوم والسياسة بالطرق

(52 مكرر) نتصور مقدار غائلات ما كانت عليه وزارة مصطفى خزنة دار من مطالعة هذه الرسالة فقد كتب أنطوان كونتي إلى خير الدين بالآستانة رسالة بتاريخ 24 ديسمبر 1878 جاء فيها ما يلي : « رجعنا في السياسة الداخلية إلى ما كنا عليه في عهد المرحوم سيدي مصطفى من ضرب الفرايض والغرامات على أفراد الناس من أهل الساحل والعروش وبيع المناصب والخطط فشيء يأخذه العمال وآخر يأخذه غيرهم وصار يقع ذلك من غير تحاش حتى أن الكومسيون المالي جعل جريدة في أسماء الأنفار الذين أصيبوا بذلك وفي عزم الناظر المالي أن يجمع القناصل الثلاثة ويتفاوض معهم في ذلك » . انظر : أحوال : ص : 35 . انظر أيضا :
J. Ganiage : Les origines... pp. 319-334.

(53) كان انتصاب الكومسيون في 5 جويلية 1869 . يقول أحمد بن أبـي الضياف : « وتكلم القناصل مع الباي في ذلك ثم أتاه قنصل الفرنسيس وهوالفيكنت دي بوتمليو Vicomte de Botmiliau لما اضطره بنو جنسه وقال له « إن مصرفكم فيما لا يعني أكثر من الكثير ويجب اعتبار حال الغرماء لأنهم دفعوا أموالهم ولابد لتدبير ذلك من كومسيون » أي مجلس مختلط ... فوافقه الباي على ذلك سرا » . انظر : إتحاف : ج V ص114 وفي ص 118 من ج V إتحاف يواصل ابن أبـي الضياف كلامه على الكومسيون فيقول : « ظهر لمولانا ... أن يفوض إدارة المال إلى كومسيون مالي تحت رئاسة أمير الأمراء الوزير السيد خير الدين منقسم إلى قسمين : أولهما مركب من عضوين تونسيين وثالث فرانساوي عارف بأحوال المال تستدعيه حضرته العلية من الدولة الفرانساوية وسمـي هذا القسم قسم العمل ... والثاني يتركب من ستة أعضاء اثنان فرنساويان واثنان انقليزيان واثنان طليانيان تقدمهم أرباب الديون المذكورة للمناضلة عن حقوقهم ... ويسمى هذا القسم قسم النظر والتصحيح» . انظر أيضا :
J. Ganiage : Les origines... pp. 335-402 ;
Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 191 ; n° 22, 1935, pp. 214, 228.

(54) كان ذلك من ديسمبر سنة 1862 إلى جويلية 1869 .

(55) انظر : J.Ganiage : Les origines... pp. 288-298.

المدرسيّة (56) إلاّ أنّه فيه همّة دعته للتشوّف إلى المعارف والسياسات وأعانه على ذلك سفره لباريس (57) لعمل الحساب مع محمود بن

---

(56) يقول الشيخ الفاضل ابن عاشور في أركان النهضة الأدبية بتونس ص 12 : « فألقته (خير الدين) يد الأقدار إلى مبعوث من طرف باي تونس (أحمد باي) ينتقي له مماليك ويطلب خاصة شابا مهذبا متعلما يحسن اللغة الفرنسية فكان خير الدين هو الشاب المطلوب . ودخل تونس (خير الدين) سنة 1838/1255 في أول عهد المشير الأول أحمد باشا الحسيني فجعله المشرف على إنشاء المدرسة الحربية والواسطة بينه وبين المسيرين لها من الأساتذة الأوروبيين » ويقول : J. Ganiage في كتابه : « Les origines... » ص 371 : « إن خير الدين رجل لا ثقافة له أصلا إذ كان أميا كسائر مماليك قصر باردو غير أنه كان يفهم اللغة التركية وبفضل إقاماته الطويلية بفرنسا أجاد إتقان اللغة الفرنسية فقد درس في باريس النظام السياسي للدول الغربية » .

ويقول خير الدين متحدثا عن أصله ونشأته في مذكراته (انظر : Revue Tunisienne n° 18, 1934, p. 183) « وربيت أولا بالقصر (قصر باردو) فدرست به اللغة العربية والعلوم الإسلامية ثم دخلت إلى الجيش حيث تلقنت معارفي العسكرية بإدارة لجنة من الضباط أوفدتهم فرنسا لتنظيم عساكر الباي وتعليمهم » . أما نحن فلم نجد في خزينة الحكومة التونسية بين الوثائق الخاصة بالمكتب الحربي بباردو ما يدعم القول بأن خير الدين كان يحسن الفرنسية قبل قدومه إلى تونس كما لم نعثر على ما يؤيد أنه أشرف على إنشاء المكتب الحربي ... الخ منذ قدومه فهذا الإشراف لم يقع إلا بعد ارتقاء خير الدين إلى رتبة أمير لواء الخيالة سنة 1841/1258 وهو إشراف لا بمعنى الإدارة إذ المكتب الحربي في تلك الفترة كان يديره كاليقاريس Calligaris وهو ما يؤيده قول خير الدين في مذكراته . وأما قول جان قانياج J. Ganiage بأنه أمي أصلا فمردود والصواب ما قاله الشيخ محمد السنوسي من أن خير الدين لم يتعلم بالطرق المدرسية وإنما حصلت له مشاركة في العلوم عرف بها طريق الاستعانة على كل صناعة بصالح أهلها . انظر : المنجي الشملي : خير الدين باشا . الدار التونسية للنشر 1968 ، ص : 11 .

(57) كان السبب في سفر خير الدين لفرنسا (سنة 1853) أن الباي لما تحقق عنده الحرب بين الدولة العلية ودولة الموسكو رام أن يفعل أكثر من عادات أسلافه مع عسر الوقت . والعادة أن الدولة التونسية تبعث شقوفا حربية لإعانة الدولة العلية إذا كان لها حرب ولم يكن له من اليسر ما يوفي بهمته فبعث خير الدين لاقتراض مال من بعض ديار المتجر بفرانسا وكتب له تفويضا بيده ولم يعارض في ذلك غير وزيره وصاحب سره وابن تربيته مصطفى خزنة دار . (أنظر : إتحاف . ج IV ص : 156) . ولما علم (أحمد باي) أن النازلة (نازلة محمود بن عياد) آلت إلى جدل وخصام ... أتى الأمر من بابه ... فكاتب أمير لواء الخيالة أبا محمد خير الدين وهو إذاك بباريس وآذنه بمباشرة النازلة ... ودامت النازلة نحو ثلاث سنين آل الأمر فيها إلى ما لخصه خير الدين في كتاب طبعه باللغة الفرنساوية واللغة العربية . (انظر : إتحاف : ج IV ص : 154) . وفي هذا الصدد أرسل المشير أحمد باي رسالة إلى وزير خارجية فرنسا هذا نصها : « الحمد لله نخبة الوزراء الأركان وعمدة أكمل الرفعة والشان ومن اشتمل على الوفاء بالعمل واللسان وصاحب المحاسن التي لا يحصيها الحسبان فريدة الكبراء وفخر سلك الوزراء حبيبنا السيد دوروان دو لويس وزير الأمور الخارجية في الدولة العظمى الفرنساوية أدام الله حفظه وأجزل من العز حظه أما بعد إهداء التحية المناسبة لوزارتكم السنية فإن مطالبنا من محمود ابن عياد التي كاتبنا جنابكم الأعز فيها قبل هذا مع مكتوبنا للجناب المعظم السلطاني وانتظرنا عدله في النازلة المباشر فيها أمير الأمراء ووزيرنا في الأمور البرانية الكنت ابننا جوزاب راف وكنا أمرنا الأعز الأرشد ابننا خير الدين أمير لواء الخيالة أن يباشر النازلة معه بحيث تكون يدهما واحدة وتأخر إعلام جنابكم بذلك والان نعرض لعزيز جنابكم أن يدهما في هذه الخدمة واحدة والحاضر منهما يقوم مقام

عيّاد (58) على عهد المشير الأوّل أحمد باشا باي. (59) فأقام بها مدّة (60) وتعرّف بالأعيان وشاهد ما عليه الرجال فانتشر بذلك في رياض المطالعات واستعان عليها بدن اختارهم. وسار على ذلك المنهج بعد رجوعه من سفره حتّى حصلت له مشاركة عرف بها طريق الاستعانة على كلّ صناعة بصالح أهلها. وقد كان الوزير مصطفى خزنة دار يقول: «إنّ خير الدين وحسين ورستم مجموعهم رجل واحد لأنّ خير الدين يقدر على العمل إذا وجد حُسْن التدبير من غيره وليس له قدرة على التدبير، وحُسَيْنا يقدر على التدبير ولا قدرة له على العمل، ورستماً رجل أمين فمجموعهم بمثابة رجل واحد مدبّر عامل أمين ومن انفرد منهم لا يمكن له أن يستقلّ بفضيلته».

ومن أحاسن عمل خير الدين أنه في مدّة (ص 52) تأخّره عن الخدمة (61)

الغائب فيما يتعلق بطلب حقنا الذي رجونا جنابكم في ذلك. ودمتم ودام لكم الإنعام على ممر الدوام. حرره الفقير إلى ربه تعالى عبده المشير أحمد باشا باي صاحب المملكة التونسية في 15 ربيع الأول سنة 5/1271 ديسمبر 1854
(انظر : A.E. Paris, correspondance politique, Drouyn de Lhüys, juillet 1852 - avril 1955.

(58) محمود بن محمد بن عياد ولد بتونس حوالي سنة 1810 وتوفي بالآستانة في 18 فيفريّ سنة 1880. انظر : ج IV ص ص 151–155–156. انظر أيضا :
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, pp. 184-186.
J. Ganiage : Les origines... pp 181-185, 750.
انظر أيضا : رسالة الجنرال حسين : حسم الالداد في نازلة ابن عياد. المطبعة التونسية. 1876/1292.

(59) مولد هذا الباي في الحادي والعشرين من رمضان سنة 2/1221 ديسمبر 1806 وامه جارية من سبي سنبيرة (St Prietro جزيرة في الجنوب الغربي من سردانيا) جاءت صغيرة مع أمها وأختها وتربت بدار جدته لأبيه. بويع أحمد ضحى يوم الثلاثاء عاشر شهر الله رجب سنة 10/1253 أكتوبر 1837 وتوفي في 13 رمضان سنة 30/1271 ماي 1855. انظر : إتحاف : ج IV ص ص : 188–265. انظر أيضا : الوراثة : ص ص : 31–32–33. انظر أيضا : J. Ganiage : Les origines... pp.10, 112-122

(60) من سنة 1853 إلى موفى سنة 1856.

(61) استقال خير الدين في ديسمبر سنة 1862 من منصبيه كوزير للبحر ورئيس للمجلس الأكبر وبقي متوقفا عن الخدمة إلى أن عيز رئيسا للجنة المراقبة المالية الدولية في 5 جويلية سنة 1869. انظر : J. Ganiage : Les origines... pp. 81-371 والملاحظ أن مدة التوقف عن الخدمة هي سبع سنوات لا تسع كما جاء في (R.T. n° 18, 1934, p. 187).

جمع زروعه في كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك (62) بمشاركة أعيان من علماء تونس (63) فجاء كتابا مفيدا حصل له بطبعه صيت في السياسة فأمكن له أن يكون رئيس الكومسيون المالي عند انتصابه وزيراً مباشراً بحسب ما اقتضته تلك الظروف (64) . وبعد انفصاله من وزارة تونس (65) وسعاية الشيخ محمّد ظافر له في الانتقال إلى الآستانة كان أوّل تلغراف (66) ورد لتونس تضمّن أنّ الحضرة السلطانيّة رأت بعض فصول من كتاب أقوم المسالك واستحسنتها فأمرت بإحضار مؤلّفه . فكان هذا الكتاب هو باب الدخول إلى وزارتي تونس والآستانة (67) . ولكنّه بعد أن استقرّ في خطّة الوزارة الكبرى بتونس بضع سنين تنكّر لمن كانوا في إعانته ممّن يسند إليهم التدبير وأخذ بيده زمام الإطلاق في الدولة ورشقته سهام الاعتراض وفسدت أنصاره ونقموا عليه أموراً كثيرة من أعظمها مخالفته في العمل لواجبات الشورى التي كانت

---

(62) كان الفراغ من طبعه بتصحيح محمد البشير التواتي بمطبعة الدولة التونسية في 18 ربيع الثاني سنة 1868/1285 (انظر : أقوم المسالك : ص 464) وظهر هذا الكتاب بالفرنسية بالعنوان التالي :

Réformes nécessaires aux Etats Musulmans. Essai formant la première partie de l'ouvrage politique et statistique intitulé : « La plus sûre direction pour connaître l'état des nations », par le Général Khérédine, Ministre de la Marine à Tunis et ancien Président du Grand Conseil Tunisien. Traduit de l'arabe sous la direction de l'auteur. Paris, Imprimerie administrative de Paul Dupont, 45. rue de Grenelle, Saint-Honoré, 1868.

انظر : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 187.

(63) من بين هؤلاء الأعيان الشيخ سالم بوحاجب المولود بقرية بنبلة من قرى المنستير سنة 1244/1828 والمتوفي بتونس في ذي الحجة سنة 1925/1343 درس بجامع الزيتونة الأعظم وجلس به مدرسا من الطبقة العليا من مدرسي المالكية من 1265 إلى 1330 . وعند تأسيس المجلس البلدي في المحرم من سنة 1858/1275 انتخب ليعمل به كاتبا وهنالك تعرف بحسين ومنه تعرف بخير الدين فأصبح لكل منهما صديقا . وتولى إعانة خير الدين على تحرير كتاب أقوم المسالك كما صرح بذلك في خاتمته إذ قال : « مستعينا في تحريره ببعض أبناء الوطن » . انظر : الثريا : عدد 5 ص ص : 2–3 .

(64) سمي خير الدين وزيرا مباشرا في شوال 1286/جانفي سنة 1870 .

(65) انفصل خير الدين عن الوزارة الكبرى في 11 رجب 1294/22 جويلية سنة 1877 .

(66) انظر خبر هذه البرقية في : Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 213.

(67) سمي خير الدين وزيرا أكبر بتونس في 29 شعبان 1290/22 أكتوبر سنة 1873 وسمي صدرا أعظم بالآستانة في ذي الحجة 1295/أوائل ديسمبر سنة 1878 .

من زهرات كتابه أقوم المسالك . وقد أوقفني صهره وناصره أمير الأمراء حسين المكلّف بالمعارف العمومية على مكتوب كاتبه به من إيطاليا (68) أنّب عليه فيه غاية التأنيب لتركه واجبات الشورى واستبداده بالتوغّل في سكر الولاية . وقال لي في أحد مجالسه : «لا تكون نتيجة سيرة خير الدين إلاّ تسهيل الطريق لوزارة مصطفى بن إسماعيل حيث إنّ نفور الباي من خير الدين قاومه أوّلا معاضدة وليّ العهد (69) وخاصّة رجال الدولة لخير الدين ولكن بنفور هؤلاء لا يبقى إلاّ انتظار وزارة مصطفى بن إسماعيل . » ولكن قد سبق القضاء فتمادى خير الدين على استبداده وانحلّت جموع أنصاره وربّما وجدت لبعضهم يد سريّة (70) مع مصطفى ابن إسماعيل انتهز منهم فرصتها . وهنا لابدّ من صيانة (ص 53) بعض الأعراض ممّا يقتضيه نشر بساط الاعتراض .

وكنت في ذلك الوقت محرّرا للرائد التونسي (71) فكتبت فصلا افتتاحيّا جعلتُ عنوانه « لا قول إلاّ بعمل » ، وتكلّمت فيه على الموضوع بكلام عموميّ تمعّر له وأنكر الكلام في ذلك الموضوع . وصرّح لي مرّة بقوله : « إنّي كتبت أقوم المسالك قبل مباشرتي للخطّة وعندما باشرتها رأيت واجباتها قاضية بغير ذلك » . هذه نهاية ما سمعت منه في الاعتذار عن مخالفته لرأيه في الشورى . ولم يقع نشر ذلك الفصل بالصحيفة . ولكنّه اضطرّ للخروج من خطّة الوزارة

---

(68) انصرف الوزير حسين إلى نازلة القائد نسيم شمامة منذ أن فوض أمرها إليه في ربيع الثاني 1290/جوان 1873 ولم يزل مهتما بها حتى دعاه تشعب النازلة والخطر الذي أحدق بمصالح الدولة بها إلى الانقطاع للاشتغال بها بإيطاليا وقد أقام في مدينة القرنة Livourne من سنة 1873 إلى سنة 1881 مترددا في تلك المدة على تونس مرات لم يطل فيها مقامه . انظر : الثريا : عدد 3 .

(69) ولي العهد إذاك هو علي باي المولود سنة 26/1234 جانفي سنة 1818 . ولي في 26 ذي الحجة 28/1300 أكتوبر سنة 1882 وتوفي في 4 ربيع الأول 11/1320 جوان سنة 1902 . وكانت ولاية علي باي هي الأولى بعد الاعتراف الرسمي بالوراثة في البيت الحسيني ولكن بانتصاب الحماية الفرنسية انقطع اسناد المراتب الشرفية التركية للبايات . انظر : الوراثة : ص ص : 12–38–39 . انظر أيضا : E.I. 2ème éd. Husaynides. R. Mantran.

(70) انظر المخطوطة التي نسبناها لمحمد السنوسي والموجودة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت عنوان : « نبذة تاريخية في منشأ الوزير مصطفى بن إسماعيل » رقم 03749 .

(71) اشتغل محمد السنوسي محررا للرائد التونسي من 5 شعبان 26/1293 اوت 1876 إلى 5 رجب 3/1298 جوان 1881 .

بطلب من الباي بعد ثلاثة أسابيع من حديث ذلك الفصل (72) ولذلك أثبته في كتابي « غرر الفرائد بمحاسن الرائد » وإن لم يقع نشره في الصحيفة (73) . ومن هذا التفصيل يعلم المطالع معنى قولي له في الآستانة « إنكم أبقيتم ملك تونس ملكا مطلقا » . ولكنّه أجابني في الآستانة بغير جوابه في تونس فقال لي : « هذه إحدى المسائل التي يعترضون عليّ بها مع أني قد سعيت مع الباي في إقامة مجلس شوري ونقلت له عن الأعيان أنّهم يطلبون ذلك . فقال لي الباي : « نطلب أن تسمّي لي هؤلاء الطالبين » ففسخت المجلس وأرسلت لكلّ من شيخ الإسلام (74) والقاضي المالكي (75) لكونهما أكثر الفقهاء تبصّرا بأحوال العصر . واجتمعت مع كلّ واحد منهما بانفراده وتكلّمت معه في المسألة فكان جوابهما يدور على محور واحد وحاصله أنّ هذا الأمر لا يرضي الباي ولا يقوم لك به أصحابك ولا يعرف الأهالي له قيمة ولا يطلبونه » . قال لي خير الدين : « ثمّ إني سألت الذين طلبوا ذلك منّي من أصحابي عمّن يقوم بوظيفة المجلس من الأهالي . فكنت كلّما سألت واحداً ذكر لي بقيّة أصحابي وانحصرت دائرة الأمر فيما بيننا مع كون الباي غير راض بذلك (ص 54) فتركت الخوض في المسألة بعد ذلك . ولا شكّ عندي أنّ الاستبداد مع الصدق والنصيحة أنفع من المشاركة في الرأي إذا أفضى للتشتّت » . وعند ذلك قلت له : « أمّا الاستبداد بشرط الصدق والنصيحة فلا يخفى أنّه غير مضمون الدوام ، إمّا بتغيّر فكر الشخص أو بتغييره بغيره ، وأمّا كون الأهالي غير طالبين والباي غير راض فلا يخفى أنّ هاته التغييرات

---

(72) جرى حديث ذلك الفصل بين خير الدين ومحمد السنوسي في 19 جمادى الثانية 1294/غرة جويليا 1877 .

(73) لم نعثر لهذا الكتاب على أثر لا بدار الكتب الوطنية ولا بغيرها .

(74) عند وفاة الشيخ محمد معاوية أسندت مشيخة الإسلام إلى الشيخ أحمد ابن الخوجة في 27 صفر 13/1294 مارس1877 . انظر : الثريا : عدد 8 . ص 9 .

(75) هو الشيخ محمد الطاهر النيفر : ولد عام 1824/1240 وتوفي بتونس عام1894/1311. والملاحظ أن خير الدين هو الذي عينه قاضيا مالكيا في سنة 1873/1290 . انظر : الثريا : عدد 10 . ص 2 .

الدولية تارة تكون من الأدنى للأعلى فيثُور الأهالي إلى أن يحصلوا على انقلاب الدولة وذلك عند استضعاف الدولة وفوز الأهالي بالقوّة الكافية وتارة يكون من الأعلى للأدنى فتحمل الدولة أهاليها على ما فيه صلاح ملكهم وتدخل فيهم ذلك النظام شيئا فشيئا إلى أن يصير جبلّة فيهم ، وهذا تارة يكون بنصح الملوك للأمّة حفظا لقوّة الشوكة كما فعله السلطان سليم (76) في أخبار تنظيماته (77) وتارة يكون باستسلام الملك حين يرى من نفسه ضعفا في وجه غيره فيضطرّه ذلك إلى هذا النوع من التسليم وإلاّ فإنّ تنازل الشخص الواحد عن استبداده بالأمر من عند نفسه لا أظنّ أنّ النفس تقبله بسهولة وقد أفادنا التاريخ وجود هاته الأصناف بأسبابها في دول كثيرة . وكان الأمل من وزارتكم أن تكون الدولة من الصنف الثاني لما تقتضيه حالة جهل أغلب الأهالِي » . ثمّ أرخيت له العنان وجريت معه بحسب جريه في ذلك الميدان .

وقد أظهرت له في إحدى الليالي تعجّبي من قبوله لخطّة الصدارة بعد ولايته رئاسة مجلس الشورى (78) حيث إنّ تلك الرئاسة من الوظائف

---

(76) هو السلطان سليم الثالث ولي الخلافة العثمانية من سنة 1789 إلى سنة 1807 . وفي عهده تمت أولى محاولات الإصلاح على غرار الإصلاح الفرنسي :
(1) دائرة المعارف الإسلامية ط1 . (E.I., 1) مجلد IV 227–231 (مقال J. H. Kramers)
(2) C. Brockelmann : Histoire des peuples et des Etats islami ques, Paris, 1949, pp. 290-291.

(77) هي الإصلاحات المعروفة بالتنظيمات وقد اتخذها السلطان سليم الثالث على مثال تنظيمات المؤسسات الفرنسية إذ نصحه باتباعها سفير نابليون الأول بتركيا الجنرال سبستيان Sebastiani . والملاحظ أن الديبلوماسية الفرنسية كان لها تأثير بالغ في بلاط هذا السلطان . وكان في عداد هذه التنظيمات تنظيم الجيش إلا أن العساكر الإنكشارية لم يرضوها فدبروا مؤامرة ضد السلطان سليم فأجبر على التنازل عن الخلافة العثمانية في 29 ماي 1807 ونفذ فيه حكم الإعدام في عام 1808 . انظر : دائرة المعارف الإسلامية ط 1 (E.I., 1) مجلد IV 689–693 (مقال J. H. Kramers) .

(78) مجلس الشوري هو لجنة خاصة متركبة من عضوين انجليزيين وعضوين فرنسيين بتعيين من حكومتيهم ومن عدد من الموظفين العثمانيين . ومهمة هذا المجلس تقديم تقرير بخصوص إعادة النظام المالي العثماني . وقد أسندت رئاسة هذا المجلس إلى خير الدين بعيد وصوله إلى الآستانة وبقي على رأسه إلى 8 ذي الحجة سنة 1295/1878 . والملاحظ أن خير الدين عين صدرا أعظم بالآستانة في 28 ذي القعدة 1294/4 ديسمبر 1878 . انظر :
Revue Tunisienne : n° 18, 1934, p. 216.

الاستمراريّة وصعوبة الصدارة في البلاد العثمانيـة لاسيّما على الدخيل لا تقتضي استمراراً. كما أني أظهرت له تعجّبي من إقامته وإقامة غيره من التونسيّين هنالك تحت ضغط الاحتراس من (ص 55) ترصّد الجواسيس (79). فصدّق تعجّبي من كلا الأمرين وقال لي: « أمّا قبول الصدارة فالحقّ فيه ما تقول ولكنّي (80) قبلتها حيث إنّ الصادق باي يعتقد أنّ من يخرج من بلاده يموت جوعا فأردت أن أريه أنّ من يخرج من بلاده يصير صدراً أعظم (81) في مقام السلطنة العثمانية وأنا على يقين من عدم استمراري على تلك الخطّة ولذلك بعد خروجي منها عُرضت عليّ مراراً ولم تزل الحضرة السلطانيّة تطلب إعـادتي لها وأنا على رأيي الأوّل في عدم العودة. وأمّا الإقامة في الآستانة على الحالة الموجودة فإني قبل دخولي للآستانة ما كنت أحسب شيئا ممّا هو موجود ولو أنّ إمامي الأعظم أبا حنيفة (82) أخبرني بشيء ممّا وجدت عليه بلاد الترك كنت أقول إنّ الإمام رضّه عارف بأمر الدين وربّما شذّت عنه أمور الدنيا. وما كنت أتصوّر وجود هاته الحـالة في مقرّ السلطنة الإسلاميّة ولكن بعد وجودي في هاته البلاد وجب البقاء على هاته الحال. وأنا لا أدري كيف المآل » (82 مكرر).

(79) كان للسلطان عبد الحميد الثاني مصلحة للجوسسة تحدث عنها الشيخ محمد السنوسي في الجزء الثاني من الرحلة الحجازية (ص ص 40—41) فقال: « وبمقدار ما أمكنه (السلطان عبد الحميد) من قصر وجوه التفرقات على نفسه كان يتوجس خيفة من غدر القادرين ومكر الماكرين ولذلك اتخذ من أوجه الاحتراس وتنظيم حرس الجواسيس ما قام به بواجبات حفظ نفسه ... دخلت لصلاة الجمعة بجامع الحميدية لمشاهدة موكب حضور السلطان للصلاة ... ويدخل حرس الياورات للجامع فيحيطون بجميع جوانبه ويدخل السلطان في لمة وزرائه متدرعا بإحاطتهم به وكنت عند دخولي للجامع أخذت معي مرآة هند صغرى ليمكن لي بها النظر في أخريات ذلك الميدان فوضعتها بجيبي وبسبب ذلك بمجرد وقوفي داخل الجامع لأداء تحية المسجد عالجني أحد الياورات ووضع يده على جيبي وطلب مني استخراج ما أوجس منه خيفة ولكن كان ذلك منه بظرف تركي فعلمت عذر الرجل ورأيت لنفسي الذنب في عدم أخذ تلك المرآة بيدي لتكون بادية حالة دخولي الجامع بحضرة السلطان وأنا رجل غريب بحسب لباسي التونسي فأخرجت له المرآة وناولته إياها فنظرها وأرجعها لي وذهب في حال سبيله ».

(80) في النص كذا: ولد كني.

(81) في النص كذا: أعظما.

(82) توفي أبو حنيفة ببغداد سنة 767/150.

(82 مكرر) في النص كذا: المثال.

وقد سمعت ما يقرب من جوابه من بقيّة الذين ساقتهم المقادير إلى بلاد خلافة الإسلام واضطرّهم اضطراب الأهواء العصريّة إلى ذلك المركز وبذلك ازددت حبّا في بلادي وصرت أنشد في قومي (من البسيط) :

وما أصَاحِبُ من قَوْمٍ فَأَذْكُرُهُمْ إلاَّ يَزِيدُهُمْ حُبًّا إلَيَّ هَمُ

وقد اكتريت لسفري من الآستانة صحبة فابور نمساويّ إلى جدّه . وأمكن السفر من الآستانة عشية يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة (83) وصاحبني للمشايعة كلّ من الشيخ محمّد بيرم (84) وابنه الأعزّ محمد الهادي (85) وأتباعه . وأدركنا هنالك للمشايعة كلّ من الشيخ محمّد ظافر وصهره الخير عبد الرحمان (ص 56) الجزولي (86) . وكان الفابور محتبكا بركاب الحجاج من أهل فارس وبعض الترْك الذين تعرّفت بأعيانهم وطابت لي مرافقتهم .

وقبل خروجي من الآستانة كتبت إلى أصفى أودّائي (87) مكتوبا يشف عمّا يكنّه الفؤاد ونصّه :

---

(83) يلاحظ أن الشيخ محمد السنوسي يذكر هنا أن خروجه من الآستانة كان عشية يوم السبت الحادي عشر من ذي القعدة سنة 1299/24 سبتمبر 1882 بينما ذكر في الصفحة 10 من هذا الجزء الثاني من الرحلة أن خروجه من الآستانة كان يوم الأحد الثاني عشر من ذي القعدة . ولعل مراده أن المشايعة كانت عشية يوم السبت وأن إقلاع الباخرة كان صباح يوم الأحد . ويلاحظ أيضا أن إقامة الشيخ محمد السنوسي بالآستانة دامت من 6 رمضان 1299/8 جويلية 1882 إلى 11 ذي القعدة 1299/24 سبتمبر 1882 .

(84) يلاحظ أن الشيخ محمد بيرم الخامس أقام بالآستانة إقامة أولى من صفر 1297/جانفي 1879 إلى شعبان 1298/جوان 1881 وإقامة ثانية من المحرم 1299/نوفمبر 1881 إلى المحرم 1302/أكتوبر 1884 .

(85) محمد الهادي هو الابن البكر للشيخ محمد بيرم الخامس وكان فتى لم يبلغ العشرين من عمره لما اضطر والده إلى هجرة البلاد التونسية فالحقه أبوه مدة إقامته بالآستانة بمكتب خصوصي في مدينة جنيف من بلد سويسرة . ثم ارتحل مع أبيه إلى مصر حيث استقرت عائلته وهو الذي سهر على طبع الجزء الخامس من صفوة الاعتبار وذيله بترجمة أبيه .

(86) من أسرة الجزولي نسبة إلى قرية « جزولة » بالمغرب . انظر : دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الجديدة . ج 2 . ص ص : 540 — 541 . مقال بقلم محمد بن الشنب .

(87) هو محمد الناصر بن محمد باي ولد في 28 شوال 1271/14 جويلية سنة 1855 وجلس على العرش الحسيني في 17 وبيع الأول 1324/11 ماي سنة 1906 وتوفي في 15 ذي القعدة 1340/10 جويلية سنة 1922 . وفي أيامه حدثت واقعة الزلاج سنة 1329/1911 وفي 7 شعبان 1340/5 أفريل سنة 1922 تنازل عن العرش لامتناع السفارة الفرنسية من تكذيب استجواب نشره الصحافي

« الحمد لله وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم .

أقسم بالوداد * وما حلّ بسويداء الفؤاد * من ألم البعاد * ومزيد الاشتياق إلى المراد * لقد أذاب الشوق نفوسا * وأراق من الأنس كئوسا * ولم يحل معه إيناس الجلاس * بطيب الأنفاس * ولا راقت منازه الأسفار * وإن أسفرت عن جبين الاستبشار * وكشفت عن محيّا الآمال * في جميع الأعمال * وأبانت من تقلّب الأحوال * ما تضيق منه نفوس الرجال * وتفيق بالرجوع إلى الكبير المتعال * فتصبح رافلة في جلابيب الدراية * حافلة بما بان لها من تلك الآية * و ما هي فائدة السفر * لولا ما تفضي إليه من البعد عن خدن الودّ المعتبر * ويا لله ما أثّله الشوق * ممّا زاد على الطوق * وذلك الاشتياق * للمشتهر العجز على الإطلاق * الحازم الأقسم * الذي بانت مكارمه كنار على علم * الدرّاكة النقّادة * ذي الفطنة الوقّادة * والعراقة في المجادة * الجناب الملوكي المحمّدي الناصري لا زالت دوحة وداده دانية الجنى * تثمر له بحسن النثاء * الذي هو لأمثاله غاية المنى * أمّا بعد إهداء أيمن تحيّة * لائقة بالوصلة الروحيّة * والسؤال عن كريم خاطر السدّة السنيّة * وعن كافّة الأحوال * والأمل في الله أن يكون جريانها وفق الآمال * فلا يعزب عن شريف العلم ما عندنا من الشوق العظيم * وإني بما عندكم لعليم * كيف وأنا أرى الشوق لبلادي * وإيناس أهل ودادي * الأعزّ من أولادي * يتزايد في الروائح والغوادي * حتى دعاني إلى تخميس بيتين لأحد شعراء البلاد * (ص 57) يشكو فيهما ألم البلاد بقولي (من الطويل) :

خَلِيلَيَّ إنَّ البُعْدَ أفْنَى تَفَنُّنِي
وَأَبْقَى فُؤَادي مِنْ جَنَى الشَّوْقِ يَجْتَنِي

« ديمازيار » واحتدت الأزمة بينما كان رئيس الجمهورية الفرنسية « ميلران » بالجزائر يتأهب للالتحاق بتونس . ثم تكفل الجنزال « روبيو » قائد الجيش الاحتلال ووزير الحرب للحكومة التونسية بإقناع الباي . وحصل منه فعلا الرجوع في التنازل وإمضاء نداء في تكذيب الشائعات المتعلقة به وفي حث السكان على الترحيب برئيس الجمهورية الفرنسية . والجدير بالملاحظة أن محمد الناصر باي تتلمذ في شبابه للشيخ محمد السنوسي . انظر : م. ص. مزالي : الوراثة :ص ص 12، 41–42 .

لِذَا تَرَيَانِي شَائِقًا لَسْتُ أَفْتَنِي
أحِنُّ إلَى الْخَضْرَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنِ
حَنِينَ مَشوقٍ لِلْعِنَاقِ وَلِلضمِّ
بِلاَدِي وَإِينَاسُ الفُؤادِ رَبِيعُهَا
وَمِنْ وِدِّ أَخْدَانِي تَسامَى بَدِيعُهَا
هِيَ الأمُّ لِلأبْنَاءِ تَحنُو ضلُوعُهَا
وَمَا ذاك إلاّ أنّ جِسْمِي رضيعُهَا
وَلاَبُدَّ مِن شَوْقِ الرضيعِ إلى الأمِّ

وقد كان القلق كاد أن يذيقني ألم الأرق بسبب الابتعاد * عن منبت الأبناء ومسكن الأجداد * غير أنّ لطف اللطيف * تدارك العبد الضعيف * بتيسير السفر إلى بلد الله الحرام * وزيارة قبر نبيّه عليه السلام * وذلك أعظم ما تأنس له النفوس * ويسعى أولو الأحلام إليه ولو على الرؤوس * نسأل الله حسن البلوغ والإيّاب * وأن يمتّعنا بحسن القبول وجمع الشمل بالأحباب * إنّه كريم وهّاب * وقد تعيّن بإرادة الله وحوله السفر مساء غد التاريخ ونؤمل من حسن عهدكم المحفوظ عندي أن تشملونا بدعاء عن ظهر غيب وإني على كلّ حال * لكم داع ببلوغ الآمال * ونجاح الأعمال * وأمد السفر إلى جدّة نحو العشرة الأيّام * نسأل الله أن يسخّر لنا فيها البحر بمحض الإنعام * وعلى الله الاعتماد في بلوغ الأمل * وجمع الشمل المكتمل * ونرجو أن يبلغ منّي إلى جناب أخيكم سلام أخلصه القلب من سويدائه * يليق بسموّه وحسن أنبائه * كما يبلغ إلى كافّة الجمع السعيد وعلى الخصوص أبنائنا السعداء حماهم الله وجملة أتباعكم فرداً فرداً أدام الله حفظكم وبقاءكم للجميع * بجاه النبيّ الشفيع * والسلام من معظّم قدركم * وناشر فخركم * مخلص ودّكم * محمّد السنوسي وفّقه الله . وكتب في 10 ذي القعدة سنة 1299 (88) » . (ص 58)

(88) 23 سبتمبر 1882 .

فهـــرس الاعـــلام (1)

(1) الارقام تشير الى صفحات المخطوط

فهرس الاماكن

فهرس المصنفات الوارد ذكرها في النص

مـلاحظـة :

بعـد الفـراغ من اعـداد هـذه الـدراسة في مـارس 1970 ، تمكنـا من الاطـلاع في صيف 1970 ، بمكتبة الصربون ببـاريس ، على اطـروحة الاستاذ احمد عبد السلام وعنوانها : « Les historiens tunisiens des XVII^e , XVIII^e et XIX^e siècles ».

وهي مرقونة ومسجلة بالمكتبة المـذكورة تحت عـدد : [W - 1969 - 26 - 4°]

ولذلك لم نتمكن من الاستفادة منها في نطاق عملنا هذا . والجدير بالملاحظة ان المـؤلف اثبت ان « النبـذة التـاريخية في نشأة مصطفى بن اسماعيل » من تاليف محمـد السنوسي وهـذا مـا ذهبنـا اليه في بحثنـا قبل ان نطلع على الاطروحـة المـذكورة .